

داروسا

قصة

بقلم حسين قاسم

وكانت لنا قيلولاة ، ساعة من الوقت ، منحها محمود عمر عراجي لنا ، وللكش ، وللفدادين .. فكنا ننبطح تحت ظلال البيادر ، شاعرين بالتعب كيف يخدر ارجلنا ، وكانت الفدادين تنكوم فوق الارض مثلنا ، بينما تظل الكدش تلتقف بعض سنابل القمح من البيادر .

وبدا يخف شخير جورج حين اقترب شئيم ، فعلى صدى دعساته يفيق من نومه .. ولم يكن شئيم وخذه ذلك اليوم ، كانوا شلة من اصحابه : ابن قاسم سليم ، وابن محمود عز الدين ، وابن يقطين ، والرابع ضيف عندهم من « قب الياس » لا ادري ابن من ؟ .. وحال وصولهم بادر شئيم ، صارخا في وجه جورج :

- يا فرد الله !.. ليش بتخلي الكدش بياكلوا البيدر ؟
لم يتكلم جورج ، بل التفت الي .. فاجبت بهدوء :

- انا عم بدرس عالكدش !..

فالتفت الي شئيم ، وبده تلعب في كبراج صغير ، مقدرنا بنظرة المسافة الممتدة من رأسي حتى قدمي .. وتمتم :

- انت اسمك حسين !؟

- نعم .

- شو بتقربك « كاملة » مرات راشد عراجي ؟

- بنت خالي ..

- انت من عرب الزهران !.. من العيله .. مش غريب ..

وتقدم الي جورج صارخا في وجهه :

- ولك يا اخو الفاعلة .. وقاف ..

ووقف المسكين .. فالتفت شئيم الي من معه فانلا لهم وهو يتسسم :

- بخليه يركض قدامي مثل الحمار .. لا .. اسمعوا هالحكاية ..

والتفت الي جورج سائلا :

- جورج .. وين اختك ؟..

لم يجب جورج ، فتابع شئيم :

- ابتحكيش ؟.. قول للشباب وبينها !.. بزحلة !

وضحك وهو يعود بصدرة الي الوراء ، ثم التفت الي اصحابه

قائلا :

- بشرفوا « جورجيت » ؟

فاجابه احدهم :

- يللي كنا عندها امبارح !؟

- لك اي يا ابن الله .. شفت احلى منها ؟

- وجها مثل القمر .

وتابع آخر :

- شعرها مثل هالسنابل .. اشقر ..

- تمها خلق للبوس ..

قالوا لي انه مجنون ، فاجسست منه خيفة ، وحقيقة كنت ادري في عينيه اشياء غريبة ، لم ارها في عين غيره من الناس .
انتي اتسائل اليوم عن سر تلك النظرات ، بعدما طوى الزمن من عمري اعواما عديدة ، هل كنت متوهما ؟..

اراد ان يتحدث معي مرة .. اراد ان يبييني همومه دون تمن ، ولكنني لم استمع اليه ، ابتعدت عن حديثه ما استطعت ، ابتعدت .. ابتعدت عنه راكضا الي بيدري ، لاهبا ظهر الكديشة بالكبراج ، لتدور بي - وانا ممسك بالنورج - حول بيدر القمح .

كان مثلي - داروسا - عند محمود عمر عراجي ، تدوخنا الشمس المحرقة ، ويدوخنا الدوران حول بيدر القمح طول النهار ، ويميمينا التبن المتطاير من حولنا .

لا زلت اذكر ان في عينيه - اللتين كنت اخشاهما - يقع الف هم ، مع الف حكاية ، ولكنني كنت اکتفي برؤيته من بعيد ..

والحقيقة المرة ، انني كنت اخشى في الوقت نفسه ، سوط محمود عمر عراجي ، الذي رأيت يبرق مرات عديدة فوق اعنساك مستخدميه .

ينادونه « جورج » ، ولست ادري هل هذا اسمه الحقيقي ، او من جملة الالقب التي تباع في « بر الياس » دون مقابل .

وفي بر الياس ، وهي قرية تقع في سهل البقاع ، على طريق شتورا - دمشق ، يضع الاسم بكامله ، فيصبح عندهم ممنوعا باسماء جديدة ، مثل : « يا ابن الله » ، « يا فرد الله » ، « يا ابن غيممة زرقا » .. واسماء اخرى ما انزل الله بها من سلطان .. وقد ناداني مرة شئيم ، ابن محمود عمر عراجي ، باسماء لا يذكرها الادب .

كان الوقت ظهرا ، وكانت الشمس تنحدر الي الارض بيضاء ، فتكوي رؤوسنا . كنا ننتظر المربع سليم ، فنحن لا نستطيع ان نفك « النورج » الا في حال قدوم المربع .. اوامر محمود عمر عراجي ، هكذا ، تنفذ بدقة ، فلذلك كنا نسمع دعساته حال خروجه من المطبخ ، حاملا الينا طعام الغداء .

ولم يختلف طعام ذلك اليوم عن غيره ، كان عبارة عن رغيقين من خبز التنسور ، مبطين بشقف من « قمر الدين » .. خبز تنسور وقمر الدين !.. هذا سر نحافتي الي اليوم ..

وبدانا نكدش طعامنا ، بعد ان مسحنا من اعيننا قذى التبن والضبار .. ولم ادر كيف رميت في حضن جورج ، في ذلك اليوم نصف طعامي ، وكان التفاته للرغيق بلهفة ، ونظرته الي من عينين ، يشع منهما بريق خاطف ، جعلني اثلثت حولي بخدر . ولاول مرة اخذت اشعر ان هناك اشياء كثيرة يصعب علي فهمها .. كان يحس بالجوع اكثر مني ..

– جسمها للمضى ..

– لك شفت أحلى من جسمها؟! بحياتي انا ما شفت! ..

– تعوا نسأل جورج .. جورج! بتعرف اختك؟

كانت كلماتهم تصفع وجهه صفعا ، وهم ينعتون شقيقته بهذه الاوصاف ، ولكنه لم يجب ، بل ظل واقفا في مكانه يحفر الارض بعينه ، وتكلم ابن قاسم سليم ، موجها حديثه الى شثيم :

– اسالوا اذا راح معها ؟

– انا بعطيه عشرين ليرة اذا بروح معها ..

اجاب شثيم وهو يتطلع الى جورج ، فرفع راسه هذا ، وحينما

التقت عيناه باعين الجماعة ، قال :

– انتو كلاب ..

فصرخ في وجهه ابن محمود عز الدين :

– لك بتنهينا يا ازعز .. يا اخو الفاعلة ..

ولم يكمل كلامه حتى انهال شثيم على وجه جورج ضربا فسي

كرباجه الصغير ..

ورابت بعيني الدماء كيف تجري تحت اسفل عينيه ، وجلس على

الارض يمزج دمه بدموعه الحارة ..

تقدمت اليه ، امسح الدماء برقعة بللتها بالماء . لم يتكلم بشيء ،

بل اخذ يمسح دموعه بباطن يديه المقبرتين بالتبن . وتمثيت لو يحدثني

بشيء ما .. ولكنه ظل ينظر الي من خلال عين واحدة ، اما الاخرى

فكانت تتورم وتتفاقل في وجهه .

وغابت الشمس .. شمس ذلك اليوم ، وكادت تنتهي هذه الحقيقة

عند هذا الحد ، لو لم اعد مع اخي الى بر الياص بعد هروبي ثاني يوم

الى « عميق » .. لقد عدت ، على شرط ان لا ادرس عند بيت محمود

عمر عراجي بعد . وهكذا كان ، حتى هيا الله لي عملا ، فاكملت

« الدراسة » عند بيت راشد عراجي ، ففضيت بقية الصيف معززا ..

مكرما ..

وتناهى الى سمعي بقية القصة التي شهدت اول فصولها عند

بيادر محمود عمر عراجي .. لقد انتهت هناك ..

كان ينتظر دوره ، مثل غيره في الصالون ، كانوا اربعة شباب

بينهم رجل متوسط في العمر . لم يكن المفروض فيه ان ينتظر ، ولكنه

ظل قابعا في مكانه ، يظهر الهدوء ، بينما يقطر قلبه دما ..

ويبحاق بجهد في رفاص الساعة ، والمقارب تقترب من نصف الليل ..

ومع دقائق الاثني عشر اخذ يشعر بقلبه يتقطع ، كان يتطلع من خلال

عينه المتورمة الى المعجوز التي اخذت تصفط على عينيها الفاترتين

بجهد ، محاولة طرد النعاس .. وكانت تبسم حينما ترتطم عظام

ذقنها على صدرها الياص ، وتتنظر حولها بذهول ، كمن تفيق من

حلم لذيذ ..

تقدم جورج من الباب ، بعدما غاب صدى دعسات الكهل في آخر

الزقاق المعتم ، ولم يبق في زوارب زحلة الضيقة ، غير بعض السكارى

ارنمون في ابيات من العتابا يرمونها متقطعة مع طول نهر البردوني ..

واقترب من شقيقته .. الخنجر في جيبه تطبق عليه يده

الارذلة ، فنظر الى شعرها وهي تسرحه امام المرأة الصغيرة .. وعادت

الكلمات تدوي في راسه فوية كحجر الطاهون : « شعرها اشقر ..

وجها مثل القمر .. تمها خلق للبوس .. خلق للمضى .. لللبوس ..

للمضى .. لللبوس .. للمضى .. »

اراد ان يطرد هذه الكلمات الثقيلة عن راسه ، ولكن عبثا ،

فهي ظلت تدق مثل جرس الكنائس .. « بتعرف اختك .. بتعرف

اختك .. بتعرف اختك .. » ولم يستطع ان يتحمل اكثر من ذلك ،

فسحب الخنجر ونزل به ضربا على كتف اخته ، ثم على صدرها ..

ثلاثة .. اربعة .. سبعة .. لا يدري فيده لم تتوقف عن الضرب ..

وصرخت بعد اول ضربة :

– آي .. قتلنتي يا خبي! ..

وركضت المعجوز على صوتها .. فهاها ما رات .. فراحت

تهرول ، متعثرة خائفة ، بين الزوارب ، تصرخ ملء صوتها :

– مجرم .. مجرم .. قتل اختو .. قتل جورجيت ..

سالت محدثي الذي اخبرني عن الجريمة :

– ومن المذنب؟ ..

فاجابني بالـ :

– المذنب شثيم ابن محمود عمر عراجي ، هو الذي اوصلها الى

هذا الدرك المنحط .. جورجيت كانت اجمل واحدة في « بر الياص » !

حسين قاسم

بيروت

صدر حديثا

نزار قباني

شاعرا وانسانا

دراسة وافية بقلم

محيي الدين صبحي

التمن لمرنان لبنانيتان

دار الآداب — بيروت